كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 9-21

ساكنة بعض مدن المشرق العـربي
من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

محمد منفعة
Mohamed MENFAA

La population de quelques villes arabes de l'Orient d'après la "Rihla" d'Ibn Joubayr et la "Rihla" d'Ibn Battuta

Résumé

Cet article vise à relever des indices historiques concernant la démographie de quelques villes de l'Orient arabe, et de mettre en évidence les conséquences des calamités naturelles et des guerres (les croisades) sur cette démographie, à partir de la "Rihla" d'Ibn Joubayr et d'Ibn Battuta.

The population of some eastern Arab cities in Ibn Jubayr and Ibn Battuta's travels

Abstract

The purpose of this paper is to show information about the population of some eastern Arab cities and how this population was affected by natural and human calamities such as epidemics and crusades in Ibn Jubayr and Ibn Battuta's travels, and to compare both author's works.

ساكنة بعض مدن المشرق العربي من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

محمد منفعة

تعد كتب الرحلات من الذخائر المهمة في الحضارة، التي لا غنى عنها للباحث في أي مجال من المجالات المعرفية المختلفة، غير أنها لم توظف في هذه المجالات بما فيه الكفاية خاصة في مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وذلك لبعض الإشكاليات التي يطرحها المؤرخون، مثل ما مدى مصداقية هذه الرحلات فيما تورده من إحصائيات؟ وهل تعد من الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في البحث التاريخي؟ وهل هذه الرحلات تمت فعلا؟.

إن هذه الإشكاليات لها ما يبررها، وذلك لان المؤرخ يعتمد في أبحاثه على المصادر التاريخية التي لا يجد بها مثل تلك المعلومات التي وردت في هذه الرحلات، الأمر الذي يجعله يشكك حتى في مصداقية الرحلة التي رجع إليها. وينطبق هذا على الزياني، المؤرخ المغربي الذي شك في رحلة ابن بطوطة[1]، وربما رجع في ذلك إلى ابن خلدون الذي لم يعتمد على هذه الرحلة في كتابة تاريخه، مع العلم أنه ركز على "مروج الذهب" للمسعودي. إلا أن عدم أخذه عن الرحلة المذكورة يرجع إلى أنه كان شاهد عيان لأحداث عصره سواء بالمشرق أم بالمغرب.

بالرغم من هذه الإشكاليات ومبرراتها، ينبغي للباحث في المجال التاريخي أن يتبع منهجا نقديا مع المقارنة بين المعطيات الواردة في هذه

[1] – الترجمانة الكبرى، تحقيق وتعليق، عبد الكريم الفيلالي، نشر دار المعرفة الرباط، 1412 – 1991، ص: 581.

الرحلات وبين ما ورد في بعض المصادر غير التاريخية ككتب النوازل والحسبة وغيرها التي لا تعتمد على الأحداث السياسية والنزاعات والحروب، حتى تتم له الاستفادة من هذه الذخائر المهمة.

ونظرا لما تحتويه هذه الذخائر من معلومات اخترت دراسة رحلتين: رحلة ابن جبير البلنسي الأندلسي (539 هـ- 614 هـ / 1140م - 1211م) ورحلة ابن بطوطة الطنجي المغربي (703هـ - 779هـ/ 1303 م -1377 م)، وذلك لثلاثة أسباب:

1- إن رحلة ابن جبير وقعت بعد هجوم الصليبيين على الشام ومصر وما وقع خلال ذلك من حصاد للأرواح، أما رحلة ابن بطوطة فتمت بعد هجوم التتار على هذه المنطقة بعد هجومهم على بغداد سنة (656 هـ /1258م)، وكان التدمير والقضاء على الأخضر واليابس وقتل الأنفس دون تفريق بين الصغير والكبير.

2- معرفة آثار ذلك في الرحلتين.

3- معرفة التطور الذي عرفته الساكنة من حيث عددها ما بين الهجومين وبعدهما.

إن هذه الأسباب تدفع إلى التساؤل عن ما هي آثار الهجومين لمذكورين أعلاه على ساكنة بعض المدن العربية المغزوة؟

1- ساكنة بعض المدن العربية بعد هجوم الصليبيين

تطلعنا المصادر والمراجع التاريخية على أن الصليبيين قتلوا أعدادا هائلة عند هجومهم على الشام لاحتلال بيت المقدس سنة 492 هـ-1098 م. فهذا أحمد بن علي الحريري يقول بأنهم "قتلوا من المسلمين في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء والصبيان"[2]. ونقل سهيل زكار عن كتاب "أعمال الفرنجة"- وكان صاحبه شاهد عيان- أن الصليبيين خذوا في مطاردتهم (المسلمين) معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان

2- الإعلام و التبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حققه وعلق عليه وقدم له سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1401 - 1981، ص: 650.

حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا (الصليبيون) يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى... ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا واستسلموا(المسلمون) لرجالنا الذين أعملوا فيهم القتل طيلة اليوم بأكمله، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات...

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل... وصدر الأمر بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس، وطرحهم أمام الأبواب، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم"[3]. واستشهد كافين رايلي على نفس الحادثة بما شاهده أحد الصليبيين حيث قال: "بعد أن سقطت المدينة وقعت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين – رجالا ونساء وأطفالا فيما عدا الحاكم وحرسه الذين تمكنوا من افتداء أنفسهم بالمال فتم اصطحابهم إلى خارج المدينة". وفي معبد سليمان وحوله "خاضت الجياد في الدم حتى الركب بل وحتى اللجام. إن حكم الله كان عادلا ورائعا. إن هذا المكان نفسه، الذي ارتفعت من خلاله هرطقات هؤلاء المجدفين في حق الله، هو الذي يتلقى الله دماءهم فيه الآن"[4].

بمثل هذه الطريقة الموسومة بالهمجية واجه الصليبيون المسلمين في كل مدينة ساحلية من مدن الشام وغيرها التي دخلوها، وبذلك استتب لهم الأمر وهاجر المسلمون بلادهم بحيث إن ابن جبير لما قصد هذه الجهة في رحلته سنة 580هـ / 1184 م ، لم يجد في أغلب مدنها وقراها إلا النصارى مثل القرية التي

3- الإعلام والتبيين، المقدمة لسهيل زكار، ص 36.

4- الغرب والعالم تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، ترجمة عبد الوهاب محمد المسيري وهدى عبد السميح حجازي مراجعة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ع: 90، 1985، ص 197.

قال عنها: "ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة[5]، ليس فيها من المسلمين أحد"[6]. وتحدث عن إنطاكية واللاذقية وحصن الأكراد فقال: "وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والإفرنج لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، وفي سفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص، وهو بمرأى العين منها"[7]. وإلى جانب هذه القرى والمدن التي قتل أغلب أهلها وأصبح الإفرنج يحتلونها كليا ، هناك من قل سكانها بسبب الهجرة إلى المناطق المحصنة والمدن الكبرى، وهذا ما جعل ابن جبير يلاحظ أن "الطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة"[8]. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من هجرة الذين نجوا بأنفسهم إلى المدن، ما قاله عن بلد دمشق المكتظ بالسكان "ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتويه ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا..."[9].

وقد ضمت دمشق إلى جانب أهلها، عددا هائلا من الغرباء، نستشف ذلك من خلال المرافق التي خصصها الحكام لهم ، وقد أشار إليها ابن جبير قائلا: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب فالشأن بهذه البلدة لهم جيب جدا"[10].

هذا ولم ينس ابن جبير أن يقدم لنا نظرة عما كان بين المسلمين والنصارى من حروب، وكيف كان التعامل بين المتحاربين وغيرهم من المسافرين. فمن ذلك قوله: "ومن أعجب ما يحدث به أن نار الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .شاهدنا في هذا الوقت،

5- القارة: قرية كبيرة بين حمص ودمشق، انظر: رحلة ابن جبير ص: 209.
6- رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص: 209.
7 - نفسه ص: 206.
8 - نفسه المصدر، ص: 210 .
9 - نفسه المصدر، ص: 230 .
10- نفسه ص: 232 .

الذي هو شهر جمادى الأولى[11]، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك"، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أقل قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[12].

وفي شهر جمادى الآخرة سنة 580 هـ/شتنبر 1184 م ذكر ابن جبير ما وقع للإفرنجة مع صلاح الدين الأيوبي الذي" عند منازلته حصن الكرك ،... قصد إليه الإفرنج في جميعهم، وقد تألبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين. فصمد لهم وأقلع عن الحصن بجملته وسبقهم إلى موضع الماء. فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة إلى بلادهم ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه. فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها، وأخذ إليها حصونا وضياعا. وامتلأت أيدي المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة إلى السامري"[13]. وأشار هذا الرحالة إلى أن "مبلغ السبي آلاف لم نتحقق إحصاءها"[14].

إن هذه الإشارة إلى ما سباه المسلمون من الإفرنج يوضح أن المسلمين بدأوا يستعيدون قوتهم، لذلك سيعم الأمن البلاد، ويسترجع السكان مواقعهم

11- سنة 580 هـ/ 1184 م.
12- نفس المصدر، ص: 234 - 235.
13- نفسه، ص: 245.
14- نفسه المصدر، ص: 203.

وسكناهم، وهذا له أهميته في حالة الزيادة السكانية، هذا بالنسبة إلى المدن والقرى التي اجتاحتها جيوش الصليبيين، أما المدن والقرى والحصون التي نجت من العدوان الصليبي فعرفت زيادة سكانية كبيرة، مثل حلب التي قال عنها ابن جبير:" أما البلد فموضوعه ضخم جدا، حفيل التركيب ، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة"[15]. وتحدث عن قرى قنسرين فقال: "قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا"[16].

إن هذه الأحداث، رغم قسوتها على الساكنة العربية بهذه المنطقة، بالإضافة إلى الطاعون الأسود الذي حل بها سنة 749هـ/ 1348م، والذي قضى على أعداد هائلة من سكانها ، يشهد عليها ما أورده ابن بطوطة بقوله: "شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق، في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين [وسبع مائة]، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه، أمر مناديا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا، وأكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع، حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، فصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد [17].

15- نفس المصدر ص 203.
16- نفسه، ص: 205.
17- رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة، ص: 71.

وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في يوم واحد"[18]. لم يحدد ابن بطوطة اليوم الذي بدأ فيه الطاعون الأسود الذي حصد الأرواح، وكم دامت مدته، وإنما ذكر أنه شاهد أيام الطاعون وهو بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني، في حين انه حسب ابن كثير، قد بدأ مع بداية السنة، في شهر المحرم، بحيث إنه "وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفا."[19] وقد استمر الطاعون في حصده للأرواح إلى مستهل السنة الموالية، بحيث كما قال ابن كثير: "وفي هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جدا"[20]. وهذا يدل على أن الوباء دام أكثر من سنة، إلا أنه كما أشار إلى ذلك هذا المؤرخ فإنه "بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل"[21]. وهذا يعني أن الوباء رغم ضراوته وحصاده للأرواح، فهو قليل بالنسبة للعدد الهائل من السكان. وربما هذا السبب هو الذي جعل ابن بطوطة لا يطيل في ذكر الوفيات، لأنه يرى الأعداد الهائلة من الساكنة التي مازالت نشيطة سواء بدمشق أم بغيرها من المدن والقرى. هذا ولم يتطرق ابن جبير إلى ساكنة الشام وحدها، وإنما تحدث عن بلدان أخرى كمصر والحجاز والعراق .

لقد وردت في رحلته إشارات كثيرة إلى الساكنة بهذه البلدان، فمن ذلك حديثه عن الإسكندرية التي كانت أول محطة له بمصر، وكان ذلك يوم السبت 29 ذو القعدة 578/ 27 مارس 1182 م، حيث قال: "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم..."[22]. يتضح من قول ابن جبير أن الدولة المصرية كانت تولي لإحصاء الناس اهتماما، وإلا فيكفيها تسجيل السلع لاقتطاع العشر فقط. وما أورده عن هذه المدينة اتساع مبانيها[23]، وهذا يدل على كثرة سكانها،

18- نفس المصدر.
19 - البداية والنهاية، المجلد السابع، الجزء الرابع عشر، دقق أصوله وحققه احمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت، 1409- 1989، ص: 237 .
20 - نفس المرجع، ص: 241.
21 - نفسه، ص: 237.
22 - رحلة ابن جبير، ص: 12 و13 .
23- نفسه، ص: 13.

حتى إن مساجدها كثرت، بحيث إنها "أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير النلس لها يطفق، فمنهم المكثر والمقلل، ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك، وبالجملة فهي كثيرة جدا تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر، وهي عشرة مؤمنية، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه[24]. وكذلك منارها كثرت مساكنه[25].

وقبل أن يرحل ابن جبير عن هذه المدينة تحدث عن أبناء السبيل من المغاربة الذين عين لهم السلطان "خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله. فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائما[26]. يستشف من هذه الإشارة أنه إذا كان عدد المغاربة بالإسكندرية يفوق الألف، فإن عددهم بمصر والقاهرة سيتعدى هذا العدد، وذلك لما اشتملتا عليه من كثرة مشاهد الصحابة والعلماء والأئمة والزهاد والمدارس والخوانق[27]، غير أن ابن جبير لا يذكر عددهم، وإنما تحدث عنهم في موضعين قائلا : "ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء"[28]. وخصهم بالذكر في الموضع الثاني وهو مسجد ابن طولون الذي جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر[29].

ولم ينس ابن جبير أن يذكر ما وقع لمصر أيام الفتنة وذلك عند انتقال السلطة من العبيديين لصلاح الدين، حيث قال: "وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل. وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة

24 – نفسه ، ص: 17/16.
25– نفسه، ص: 14.
26– نفسه، ص: 15.
27– نفسه، ص: 20 –21.
28– نفسه، ص: 22.
29– نفسه، ص: 25

اختطاطها فيما سلف.[30]" وهذا يجعلنا نستنتج أن المدينة في البلاد الإسلامية كان يختار موقعها بدقة، بحيث لا تؤثر فيه ولا في ساكنته صروف الدهر، وحتى إن وقع الخراب التام أو القضاء المبرم على الناس، فبعد فترة تستعيد المدينة تكاثر سكانها رويدا رويدا.

وهكذا لا يرحل ابن جبير من مدينة أو قرية إلى أخرى إلا ويشير إلى سكانها أو مساكنها بحسب الكثرة أو القلة، بالرغم مما عرفته هذه البلدان من أزمات وكوارث طبيعية وانسانية. ومن الكوارث الانسانية التي اجتاحت المنطقة كارثة الهجوم التتري، فماذا عنه في رحلة ابن بطوطة؟

2 - ساكنة بعض المدن العربية بعد هجوم التتر

إن الهجوم المدمر للتتر على دار الخلافة الإسلامية بغداد كان سنة 656هـ/ 1258م[31]، وحسب المصادر قضى على الأخضر و اليابس، بحيث لم ينج من الموت إلا القليل القليل من الناس الذين قدر الله لهم الحياة. ويمكن أن نشبه هذا الزحف التتري بانتشار الطاعون الأسود الذي قضى على الأخضر و اليابس، إلا أنه كما قال ابن كثير فيما أوردناه أعلاه، كان قليلا بالنسبة للعدد الهائل للسكان. فهذه بغداد التي وقع فيها ما وقع من سفك للدماء وتقتيل للناس صغيرهم وكبيرهم، حتى إن ابن الأثير لم يستطع أن يكتب في بداية الأمر عن الواقعة شيئا لهولها، يقول عنها ابن بطوطة .

"والجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا، وهو الآن خراب أكثره. وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامات و الثلاثة. وفي ثمان منها المساجد الجامعة، ومن هذه المحلات محلة باب البصرة، وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله (...) وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء.[32]" ويتحدث عن الجهة الشرقية من بغداد قائلا: "والجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها

30- نفسه، ص: 27

31- ذكر ابن بطوطة أن زحف التتر على بغداد حدث سنة 645 هـ، انظر، ص: 151، في حين تذكر المصادر أن الزحف وقع سنة 656 هـ.

32- رحلة ابن بطوطة، ص: 15.

سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة"[33].

إن إشارة ابن بطوطة إلى الخراب الذي أصاب الجانب الغربي من بغداد، ليس مقتصرا على مدينة بغداد فقط، وإنما هناك بعض المدن الأخرى التي أصابها الخراب مثل مدينة نصيبين التي "خرب أكثرها"[34]. وكذلك قال عن مدينة دارا: "وهي عتيقة كبيرة، بيضاء المنظر، لها قلعة مشرفة. وهي الآن خراب لا عمارة بها"[35]. وتحدث عن قرية قرب الموصل قائلا: "وبمقربة منه قرية كبيرة بقرب منها خراب، يقال إنه موضع المدينة المعروف بنينوي مدينة يونس عليه السلام"[36]، غير أنه لم يذكر سبب هذا الخراب سواء ببغداد أم بالمواقع الأخرى العراقية، وقد بين ابن كثير أن السبب في ذلك هو "زلزلة عظيمة ببغداد سقط منها دور كثيرة بالجانب الغربي..."[37].

هذا وقد أصاب الخراب بعض مدن الشام أيضا مثل مدينة قنسرين التي قال عنها: "وكانت مدينة قنسرين قديما كبيرة، ثم خرجت ولم يبق إلا رسومها"[38]. ربما يعني ابن بطوطة ب "قديما" أي قبل احتلال الصليبيين لها، وذلك لأن ابن جبير أشار إلى أنه وجدها خرابا حيث قال: "وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان، ولكنها خربت وعدت كأن لم تغن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة، ورسومها الطامسة"[39]. وتحدث ابن بطوطة عن الخراب الذي أصاب عسقلان قائلا: "ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان. وهو خراب قد عاد رسوما طامسة، وأطلالا دارسة"[40]. وفي طريقه إلى بيروت مر بعكة فقال عنها: "وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم"[41]، ثم سافر من عكة إلى صور التي اضطرب في وصفه لها،

33- نفسه.
34- نفسه، ص: 159.
35- نفسه.
36- نفسه، ص: 158.
37- البداية والنهاية
38- ابن بطوطة، ص: 55.
39- ابن جبير، ص: 205.
40- ابن بطوطة، ص: 46.
41- نفسه، ص: 47.

وذلك أنه في البداية يقول عنها: "وهي خراب، وبخارجها قرية معمورة"[42]، وبعد هذا يشير إلى أنها "يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان: أحدهما للبر، والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربع فصلات، كلها في ستائر محيطة بالباب. وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منها، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك"[43].

يظهر أن هذا الوصف الثاني الذي أورده ابن بطوطة عن مدينة صور، قد نقله عن ابن جبير[44]، ونظرا لعدم الإحالة عليه ظهر الاضطراب واضحا في وصف ابن بطوطة لصور، لذلك لا يجب الأخذ بعين الاعتبار إلا ما ورد عنه في القول الأول بأنها خراب. وكذلك أشار إلى أن طبرية "كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها"[45]. وبين أن الخراب الذي أصاب طرابلس الشام القديمة كان بعد استرجاع الملك الظاهر لها من يد الروم الذين تملكوها زمنا[46]، وبنيت مكانها مدينة طرابلس الحديثة[47]. هذا عن العمائر التي وقع بها الخراب إما بزلزال كالجانب الغربي من بغداد، وإما بتخريب إنساني كما هو الشأن بالنسبة إلى طرابلس الشام، وإما بسبب آخر لم يذكره ابن بطوطة. أما مصر فلا يذكر ابن بطوطة بها إلا الخراب الذي أصاب دمياط على يد الإفرنج على عهد الملك الصالح[48]، وذكر الخراب الذي لحق بالمنار عند عودته إليه سنة 750 – 1349 م حيث قال: "وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه"[49].

42- نفسه، ص: 48.
43- نفسه.
44- رحلة ابن جبير، ص: 250.
45- رحلة ابن بطوطة، ص: 48.
46- نفسه، ص: 50
47- نفسه.
48- نفسه، ص: 30.
49- نفسه، ص: 22.